ذاكرة الفراق

نصوص

تأليف

مرمر محمد عبد الجليل

٢٠٢٢

الكتاب : ذاكرة الفراق
المؤلف : مرمر محمد عبدالجليل
الطبعة الأولى 2022
ISBN : 978-91-89288-45-4
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية :
2022-01-12-15-41
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
هاتف : 0046790185518
البريد الإلكتروني : digitizethearabicbook@hotmail.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي –ستوكهولم، لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الاشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

للتواصل مع المؤلفة

بريد إلكتروني : marmermohammed@gmail.com

إهداء ...

إلى أمي..

أبي..

أخوتي..

أصدقائي..

أسرتي مبدعون..

الاتحاد العالمي للمثقفين العرب..

إلى عمي العزيز الذي أوقد لي طريق الكتابة وجعلني أمشي عليه (المكي عبد الجليل).

شكر ..

"من لا يشكر الناس لا يشكر الله"

أخص بالشكر كل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب

الأستاذة ليلى على آل زياد..

الأستاذ محمد علي الدباسي..

الأستاذ صباح الحمداني..

الدكتور على حرب..

الأستاذ عبد الله كوني..

خالص شكري وامتناني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحب الأول كذبة كبيرة تستر برداء البراءة، إلا أنها فاتنة وجميلة جدًا. كأن يقتحم أحدهم قلبك عنوة؛ كاقتحام دفقات المطر لذرات الغبار المكدسة في الهواء ويندسُ فيها. يكون نسمة صباحكَ وهمسة مسائك، تلك النسمات والهمسات تحتويان على شعورٍ مختلف، دغدغة مريبة تغازل شعركَ المخملي. يولد من عمق الأحاسيس يتجدد في حنايا العمر، يزدهر مع توهج وخفقان القلب، ولكنه...

ينتهي حين غفلة فأنى لك أن تتخلص مما خلَّفه داخلك؟

وأنى لك أن تمضي دونما أن تخذلك حبال الذكريات لتشدك نحوها، فتجد نفسك في غرف دهماء وحدكَ لا مَهرب لكَ من هجوم وابل الذكريات، خاصة تلك التي لن تغادرك.

لم أكن

لم أكن له تلك الحبيبة التي تمناها، ولا المتكأ والأمان! لم أدثره في أحزانه، احتويه، أجبر كسره وأضمد جرحه، بل كنت من آلمه وكسره، تلك الغصة التي تمضُ قلبه.

وقتما أراه الله برهان أني لستُ من سيأويه؛ هرب مني باحثًا عن قلبٍ أكثر دفئًا.

ليتنا ما التقينا!

ليتني لم أكن له تلك الغصة التي أوجعته

وليته لم يقع ضحية حبي.

غريب قريب

سكونٌ مريب على إحدى زوايا خافقي الآن بات كل شيءٍ غريبًا، لا وجود لكائن من كان هنا، ولا ثَّمة أحد يود أن يعتنق الحبَ مع أيَّ شخص _هذا ما يلوح أمام ناظريِّ_ ولا حتى أن يجاهد في سبيله هل هذه هي النهاية؟

يا لها من نهاية إذًا.

تلك القصة التي تجوب آفاق مُخيلتي وَلَّتْ قبل أن تبدأ، مهلًا، ماذا؟ ثمَّة ضوء خافت يقترب شيئًا فشيئًا ناحيتي ما هو يا ترى؟ أو عليَّ أن أقول من هو؟ ملامحه لَمْ تَبنْ بعد، وما زال يدنو نحوي لقد أصبح قريبًا للغايةِ. هل هو مَلاك هابطٌ من السماءِ؟!

حقًّا لا ينبغي عليَّ أن أتوجس خيفة منه؛ فأنا صنديدة بِمَا يكفي لأظل في انتظارِه، لَمْ يكُ مُجرَّد إنسان حتى، بل هو كما قلت سابقًا عنه؛ ملاك هابط من السماءِ، أو هجين ما بينهما. زارني غريبًا وأضحى قريبًا؛ بلا شكَّ لَمْ يدعْ لقلبي مجالًا لتفاديه وعدم الاصطدام به، لا بل كان أشبه بمحيطٍ غمرني فيه وبحبه انتصر عليَّ. أظنُّ أنه انتصر منذ البداية، فكسر ذاك السكون الذي طوقني وابتدر اعتناق الحب دينًا لقلبي دونما هوادة، ويكأنها نبوءة لاحت برُمَّتها على خافقي كان هو النبي فيها، وبُهِت

بوجوده ما دون الدون، فأعلن الجهاد في سبيله علَّه يُعِيد له قدسيته ويكون للعشاقِ عيد. أمَّا عنه فقد أصبح هو عيدي الذي لَمْ يفارقني البَتَّة، واجتاز كل ما قد يمنعنا من اللقاءِ، برغم من أنه غريب، بيد أنه الآن ملك قلبي وأضحى لفؤادي قريبًا.

حب أم غباء؟

أيا سيدي! يا من تجرعت كأس الذل منه وعلى يديه؛ في كل مرة كان يعاودني الحنين فيها إليكَ ولمقلتيكَ، وفي كُل لحظةٍ تحاصرني الأشواق فيها إليكَ؛ وتعبثَ أناملي بشاشةِ هاتفي، لأبعث لكَ بَرْقيةَ حب لا محتوى فيها إلا أنكَ كنت قد تفهم ما نأى إليه خاطري، وكعادتك ببرودٍ تام لن تتلهف للرد عليها، وأنا بغبائي أعيد إرسالها عندما يطوقني فيها طيفكَ العابر.

أيا سيدي! منذ أن تعلقتُ بكَ وأدمنتُ قلبكَ، زرعتُ حينها ترهات وهواجس بداخلي أنكَ لي ولست لأحد سواي، ولكن هيهات فقد كنتَ لمئاتٍ الآلف غيري من نون النسوة، وكأن الحياة عاقبتني على ثقتي الزائدة بكَ، فهجرتني وأيقنت وقتها أيضًا أني ربما هُزِمت وخسرتكَ. جعلتني أعشق قربكَ ووجودكَ ثم تركتني أسير في الطرقات وحدي؛ أترنح كمدمنِ كحولٍ أو ضالٍّ بلا عقل، فاقد لجرعتِه التي تعيد إليه توازنه وحياته، ضاعت الجرعات وانتهت وما عاد عقلي إليَّ.

أيا سيدي! لا أدري لِمَ غامرت منذ البداية و أحببتُكَ؟!

و لا أريد أن أدري، ولكن يبقى ذاك السؤال يدغدغ في كل حين سكينتي هل هناك ارتباط بين الحب وهرمون الغباء؟ لأني فقط أريد أن أستعيد ما تبقى مني.

منارة

ما فتئت الأيام تمر عليِّ و كأنها تحكي وتتمتم لي أن في حنايا العمرِ متسعٌ لكي يتجذر اللقاء، وتلكم الذاكرة الجدباء خلف جدران العقل ما برِحَت تنضح بذكراكِ، تُجدد العهد والوعد، بل ظلت ملامح آخر لقاء لنا معا؛ تتجسد أمامي كمرآةٍ تُظهر لي انعكاس صورتها، فتثير دواخلي الهشة برؤياكِ، والتي لم تتخلَ قط عن تماسكها، وسط تيار جارف من الذكريات، طيفكِ، ملامحكِ، صوتكِ وكل ما يخصكِ.

أيا منارة! مرَّ أكثر من عام مذ أن تناهى إلى سمعي صوتكِ، تلك الذبذبات المتقطعة التي كنت أسميها زوبعتي وكلماتكِ التي تخطفني إلى حيث كنا، صوتكِ الذي يسكنني ويحتل طياتي ليمحو عني رهق الأيام، فدائما كنتِ وما زلتِ وستظلين حبيبتي التي جاد عليِّ الزمان بعشقها، ولا ألومه؛ فكيف لقمر أن يتنزل من سمائِه ويخطو علنًا بين البشر لا يتوارى عن أعينهم، فيقع الكل في عشقه، وتشتعل نارًا في الحنايا تُسمَّى "الغيرة" تُحيط بي ويكأنها ستلتهمني، قبل أن تحرق جل من حولكِ، لا تلوميني أنا فقد كنتُ محبًا لك وكارهًا لمن يشاركني فيكِ. أحبكِ أقولها! ولست ممن يكتمون البوح داخلهم فتسكنهم رسيس حمى الكتمان؛ فيتنازلون بعد فوات الأوان، سأظل أكتب عنكِ كل يوم

حتى تتلقي أرواحنا في الفردوس وتتوارى أجسادنا تحت الثرى، أو يُعلن القلم تمرده علي، وسأحكيكِ كل يوم قصة في مخيلتي لأطفالي وبنات أفكاري أولئك الذين يكبرون كل يوم بسماعهم اسمكِ.

أيا منارة! ستطول حكايتي لكِ، ولكن اعلمي أنه لا حكاية ستُروى دونما وجودكِ في كل صفحاتها

تمرد الذكرى

كيف للحنين أن يكون عنيدًا ويعتكف على أعتاب أيسر الصدرِ، كماردٍ يأبى المكوث في مصباحِه يتعصب بالخروجِ لكي يحنو باللقاء لا يبالي بصرخاتٍ ثكلى تتوجس في الدهاليزِ "أن لا تخرج، تمهل". قلبُ متبول يستلذ بالصرخات مثل طفلٍ وليد وتتوجسه آهات الحنين وألمه الذي يكوي داخلي المكلوم.

كيف للحظات الحزينة أن تكون سيدة البقاع، سرمدية المدى، تخلق فجوات يستعصي الوصول إليها، مُحاكة بخيوطٍ هيِّنة كعنكبوتٍ بنى بيتًا وهنًا إلا أن الطريق إليها مستحيل، وزهرُ الأقحوان ينفث عطره في البقاع ذاتها علَّه يكون الصاحب الذي يحيك حروف السعادة على خافق مثخن بالجراح، يردخ الحزن الأعزل، ويميط معمعة الدنا.

عنفوانُ الفصول يحلُ كمهرجانٍ ليمحو لثام التخبط، وينسج الحبَّ من عراميسه المخلخلة، حتى يغدو الشيب شاب _بعد رغبةٍ عارمة بقضائه على تجاعيد شيخوخة طال عليها الأمد، وإغوائها الذي قصم الدهر مُنصاعًا لها ولكنه عاد كالعرجون القديم ونال ما أراد بحجة داحضة_ كل ذلك لن يطفئ مرارة الذكريات التي لا مناص منها، ولن يغدق جفاف يمضه الحنين.

الطغيانُ يود أن يكون سيد المكان واللحظات ما زالت متمسكةً بعرشها، ستظل تلك الملحمة تدور، ويظل داخلي يتوق للسلام والذي لن يستلذ به ما لم يجترع ما تبقى من مرارة الذكرى، ويردديه الحنين.

أصداء الروح

(١)

الخامس من نيسان، عامان ونيف منذ آخر مكالمة بيننا، كان ختامها: "سأعاود الاتصال بك لاحقًا"

وأنا ما زلتُ أراقب هاتفي مُثرقّبة اتصالكَ كما وعدتني، ولكنكَ لم تتصل بعد! يا ترَى أيَّ مكروه هذا الذي قد أصابكَ وجعل اللقاء بيننا طويلًا؟ لن تصدقني إن قلت لك أني كما أنا لم أتغير؛ فما زلتُ استيقظُ كل صباح وأبدأ بروتيني الدائم؛ والذي قد بات مملٌ وباهت؛ ينقصه وجودكَ، أضع على مسجل الصوت شريط أغنية لأم كلثوم؛ التي نحبها وأدندن بها وحديَّ علّي استمع إلى صوتكَ من خلفي مرددًا لتلك الألحان معي، وأفرش الأرض كُل يوم بتلك السجادةِ الزرقاء؛ التي اشتريتها في ذلك اليوم خصيصًا؛ فقط لأنك تعشق هذا اللون وإن لم أُخْطيء فأنت تحبه أكثر منيّ، وأعلم تماما أنك قد تتفاجأ بها وتضمني إلى صدركَ وتقول لي:

-"بل أنتِ كُل ألواني، والأقرب إلى قلبي"

لا أظنني أطلب الكثير، فأنا فقط أريد ولو القليل منك، كانتْ الساعات و الأيام لا بل السنين تمَرُّ أمامي بسرعةِ البرق، وأنا

في انتظارِ اتصالكَ يومها، و أنتَ حتى لَمْ تتصل ولم تعدْ، هذه ليستْ عادتكَ، ما زلتُ متمسكة بروتينيٍّ إلى اليوم وقد ظنَّ الجميع أنه "هوس الفراق" فأحيانا أسمعهم يلقون على مسمعي:

-"يا حرام يا لها من مسكينة بعد أن توفيَ زوجها ما عادتَ تعي ما تفعله" وأحيانا يقولون:

-"لها عامان وهي في مشفى الأمراض العقلية، تمارس هذه التقاليد العتيقة، وتعجز عن تصديق بأن نصفها قد رحلَ، وأن روحها قد تيتمتْ "

يا لهم من حمقى كيف لهم أن يلقوا بهذه الكلمات أمامي! وهم لا يدركون بأني أراك في أحلامي كُل يوم متصلًا بي وقائلًا لي:

-"سأعاود الاتصال بكِ لاحقًا"

هل يعقل بأنيٍّ جننتَ، لأنكَ لم تتصل؟

أما أنكَ حقًا قد رحلتْ من دون حتى أن تودعني وأنا عاجزة عن تصديق ذلك؟

(٢)

إلى من أكتب ومن سيقرأ؟ فبعد رحيلي سترحل كلماتي معي..

زوجي الحبيب خلتْ الأعوام مُذ أن رحلتْ وتوسدتْ بالتراب، وخلا حينها قلبي انكسر وضاق بي المسير، لم أكُ أعلم أنى لي

من دونكَ سأستمر؟ فقد كانت أجسادنا في مكانين مختلفين، ولكن روحنا ما برحتْ معي. عند رحيلكَ توجسني الخوف أن كيف لي أن أمضي دونما وجودكَ معي؛ ولكن عجبًا قد مضيتْ! كم كُنا سخفاء عندما تعاهدنا أن يأخذنا الموت سويًا! ويبدو أنك من خنت عهدنا وتركتني، ولكن أخفي لك أني تمنتُ اللحاق بكَ، ولكن شخصٌ تُحبه أوقفني؛ زهرتي الصغيرة وأميرتك المدللة ظلَّت تردد لي كل ليلةٍ: "متــى سيعود بابا؟" ولم تنفك تسأل عن موعد قدومكَ.

في كل ليلةٍ أذرف فيها دمعي بلا هوادة أجدها بقربي وتقول: "إذ رآك بابا تبكيني فإنه سيوبخني، أعلم أنه سيعود"

لِمَ لم تعد لأجلها؟

فقد كانت تثق بعودتكَ كثيرًا.

عزيزي اعذرني أي هراء هذا الذي أتفوه به؟

حسنًا، لا تقلق عليها فقد مرَّت الأعوام وكبرت الآن، أصبحتُ لها أبًا، أمًا، أختًا وصديقة، أعطيتُها كلما كنتَ ستقدمه لها، الحنان، الأمان ويكأنك كنت معنا، إلى أن كبرتَ وما زلتْ في ذاكرتها.

هل لكَ أن تصدق أنها لم تنسَ قط أننا كنا ننتظرك كل يوم في المساءِ لتعود فاتحًا علينا الأبواب بالعطاءِ؟

وما فتئت تتذكر تلك الابتسامة التي كانت تظهر في عينيكَ قبل شفتيكَ لترد لنا الأرواح، ولكن أين كنت وأين تلك الأرواح؟ فقد ذبلت أرواحنا بعد بعدكَ. كيف كان لي أن لا أبكيكَ وأنت اتخذت مكان قصي عني؟ لا بأس، الآن سينتهي كل هذا البعد، على كل حالٍ أنا قادمة إليكَ ولكن أرجو أن تكون فعلتْ كما أوصيتكَ سابقًا وأن تكون هيأت لي مقامًا معكَ في الجنةِ وبقربكَ يا قلبي. أمانتي كبرتْ، أضحتْ ملكة وغدتْ أمًا ولديها مملكة وعائلة، لكم هي سعيدة بها ومعها!

وهذا ما أسعدني كما أني قد أتعبتها بمرضي الذي كنتُ أمقتُه لأنه أشقى مدللتي، ولكني أحببته لأنه سيجمعني بحبيبي، لذا انتظرني أناي.

حفنة ذكريات

(١)

في كل عام تتساقط فيه حبات المطر ويحل الخريف على خافقي؛ يستعمر وقتها ذاكرتي طيفكَ، و كأنه يحل فقط ليذكرني بك! وبلقائنا الأول. حزيران يا شهر الأحزان ما جمعتنا إلا لنفترق، فليتك ما جمعتنا، بعدما أغلقت علينا كل الدروب؛ التي كنا دائما ما نفتحها، ولا نقف عند تلك المحطات العتيقة؛ والتي لا تطل إلا على شرفات اليأس.

عزيزي!

كنت لي بقلبك، بعقلك بل كنت لي كلك، أتذكرُ عندما قلت لكَ بأن علاقتنا أشبه بخيطٍ ضعيف، ويجب علينا أن لا نشد عليه؟

أتذكر إجابتك حينها: "الخيط إن انقطع سنجدده، واعلمي أنك حياتي التي أعيشها، ولتشهد الطرقات على قولي هذا؛ فهي لا ولن تخون، ستبقي هنا بقلبي".

لا تخل بأني قد نمت تلك الليلة بعد أن نطقت لي بهذي الكلمات، فقد جعلت قلبي يرقص على أناشيد الحب، فظننتك لي وحدي وأنك كالطرقات لا ولن تخون، ولكن... قد خانت الطرقات

وانتهى العهد، إلا أن حبنا لم يكن عابرا كأي حب أو نزوة، أحببتك بصدق ووهبت حياتي لك. قاومت وحاربت لأجلك العادات والأعراف والتقاليد. تسعُ سنين مضت والشوق يحرقني في حنايا خافقي، اشتقت إلى وجودك بقلبي يا ملاكي؛ فقد لا تعلم أن فؤادي قد تصدع، وازدان بالشقوق والصدوع به وانهار من بعدك. ليس لي أماني كثيرة سوى أني أريد أن أراك، أن احكي لك ما حدث لي بعد غيابك، فلم يكن لي أنيس يؤنسني سواك. كنت دائما ما أربت على قلبي الصغير، وأخبره أنك لن تعود فتبا لعاداتك السخيفة التي جعلتنا نفترق، وتبا للوعود التي سطرنا بها حكايتنا، وسأعيش بلا خيالك الوضاء، ونورك السامي، و لكن كيف لي أن أستمر من دونك؟

(٢)

في قاعةِ المحكمة وأمام قاضي الحب؛ خرجتْ كلماتَه الواثقة وتحولت لقناع يُغطي انتفاضة قلبه التي صوبها نحوي في محاولة تخفيف وقع الألم"لم يكن الزواج أبدًا أول رابط بيننا ولا آخرها" وأشار إلى تلك الانتفاضة ليكشف الستار بصَمْتِه. هذه كانت آخر كلماته قبيل ثلاثة أعوام، وقتما وقعنا على تلك الأوراق البغضية التي تحمل أخر عهد لزواجنا، وقتئذ أصابتني رعشة الفراق أيَّ ذنب ارتكبته في حياتي لأعاقب ب"الانفصال" عنه؟! وما برحتْ تلك الرعشة ترافقني إلى الآن؛ وكأنها تعاقبني لأجله، طيفه الجميل لا يفارقني طيلة تلك الفترة، بل

كان معي أينما ذهبت وحللت حطَّ على قلبي كعصفورٍ جميلٍ الشكل ، حسن الصوت؛ ليحمل عني كل أعباءِ الحياة.

خطئي الأكبر أني لم أكُ بتلك الشجاعة لأعبر له عن مشاعري وكامل حبي، كنت أخبئها ولا أدري لمَ وممن أخبأها. وكما قال لي: "حبنا يا عزيزتي كقطبي مغناطيس متشابهة، بحيث لا يمكننا أن نكون معًا؛ فنحن كعنصرين متخلفين على الطبيعة أشبه بالماءِ والنارِ".

لِمَ كان علينا أن نفصل قلبين اتحدا معًا بما يسمى "الطلاق"؟

أو ليس من حقنا أن نتفق ونأخذ هدنة حتى نهدأ ونخمد ما في قلوبنا من غضبٍ، ونرى كيف ستصير حياتنا بعد أن تفارق؟!

لِمَ علينا أن نكبل أنفسنا بقيود من سراب؟

ونحن لا نعرف أسباب الرحيل هكذا وبلا عتاب.

طال على فؤادي عذاب الفراق وتلك الشهور التي خلت وتآمرت عليَّ فيها الذكريات والمسافات لم تكن سهلة، وأنا على علمٍ أني كنت وما زلتُ وسأظل طفلته وحبيبته الأولى رغم أنف الأوراق والأعراف وهو كذلك، أدعو الله في كل ليلةٍ أن يَمِلَّ الرحيل ويطالب قلبه بالعودة لي ولكنه عنيد.

من ذاكرة الفراق ١

اسميني كما يحلو لكَ بلاءكَ، مصيبتكَ، حظكَ العاثر، وقدركَ الأسوأ، اطلق علي من الأسماء مـا شئت، أنت من اخترتني من بين كل حواء لتعبث معي على ثقةٍ أني سأقع فريسة حبك وأرتمي بين أحضان هواكَ، لكن هيهات! و لـربما كنت تجلس في غرفتك المظلمة تحيك الخطط بخبث، وتظن أنكَ قد أجدت نسجـها، ولكن ما لا كنت تدريه يا عزيز أنكَ من ستهوي في كمينكَ ذاك، ربما كنت تظن بأن قلبي من زجاج هش وسينكسر وتنتصر بعد أن لعبت الرهان عليه، وأن قلبكَ من حديد صلب ولن يتأثر وينكسر، فمضيت نحوي بكل جبروت، ولم ترَ قط خيبتكَ تلك التي كانت تتبعكَ، وعندما اقتربت تفاجأت، واكتشفت أنَّ قلبي من ترابٍ، وظل يزهر دومًا مع الماء، أما قلبكَ الحديدي؛ فقد تصدأ و اهترأ بفعل العنصر ذاته.

أتدري؟

شئت أم أبيت، أنا من سأقضي على غرورِكَ، لا لن ألاحقكَ، ولكن تأكد تمامًا أنه كلما شاء القدر لنا أن نلتقي، سأبتسم بوجهكَ، ولن أرأف بكَ إن حاولت العبث معي أنا حواء، وستظل تناديني بقدركَ الأسود والأسوأ.

من ذاكرة الفراق ٢

نعم كنتِ بلائي، ولكن بلائي الجميل، كنتِ حظي العاثر الذي تعثرتُ به، وتبعثر حينها خافقي بكِ، ولكنكِ لم تكوني يومًا غير قدري الأجمل، فأنتِ من أضأتِ في حناياي بصيص الأمل، أنتِ من أهداني الطريق وأشعلتِ لهيب الحياة في قلبي، أنتِ فقط من كان لها أحقية المكوث بقلبي، أنا لا أختلق الأعذار إليكِ، ولا أجيد فن المراوغة ولكن كل ما بدر مني كان لأجلي، لأجلكِ، لأجلنا يا عزيزة هوائي، لم أكُ أختلي في غرفتي إلا لأدعو الرزاق بكِ.

نعم كذبتُ!

كذبتُ عندما قلتُ أن قلبي من حديد ولكنه من زجاج هش إن عصف به الحنين إليكِ تهشم، لطالما كنت أؤمن بأن قلبكِ مزهر فلا يليق به إلا الإزهار، لكم بعثت بذور النسيان لكي تنسيني؟

ولكن كل ذلك لم يجدِ، لا تحقدي علي فأنا والله لم أحمل لكِ بقلبي سوى الحب العذري الجميل، لم يقفز في داخلي شيئا ما يقودني لأخذلكِ، ابتعدت عنكِ لأنكِ أردتِ هذا، ابتعدتُ عندما رأيتُ مقلتيكِ تفضيان بالدمع لأني أذيتكِ من غير حق، شعرتُ بأني لا أليق بكِ ولا يحق لي بأن أبكيكِ فو الذي نفسي بيده إن

كل عبرة تفيض من مهجتيكِ هي عقد بقلبي، لم أمضِ نحوكِ لأخذلكِ أو أقتل قلبكِ، فأنتِ أحب إلى روحي من روحي، غرقتُ بحبكِ ولم ينجيني سوى مرفأكِ يا مأمني وأماني، لا تحقدي على قلبي وأنا الذي وضعتُ عليه صخرة كي تخفي هواكِ وينساكِ، أنا من أظلمته بعدما أضأتِ جوانحه، خسرتكِ وخسرتُ الرهان عليكِ، وخسرتُ لهفة النظر إلى عينيكِ، ذقت مرارة الفقد ببعدكِ، أعلم بأنكِ تألمت لكذبي عليكِ وما زال الألم يحز بقلبكِ، أعلم أني خلقتُ الكآبة بكِ، ولكنكِ فقط تدّعين القوة لكي أعاود الولوج إلى حياتكِ، لكني و ايم الله! لم تكُ لي غاية بقتل قلبكِ يا قلبي وذاتي، وإني أحبكِ وما زلتُ أحبكِ ولكن سأمضي بعيدًا عنكِ، فأنتِ قويتي حوائي مضيت فكيف لي أن أعود لأبعثرك بوجودي، فرابطنا المقدس انتهى.

لن يظفر!

ألمُ ألمّ بيّ اجتاح صدريّ واقتربَ إلى أوتارِ خافقيّ، عبثَ بوتيرتيّ؛ ليعزف ليّ لحنُ الأنين، ظننتُ أنَّه ملكيّ وأدركتُ خطئي متأخرًا _إن بعض الظّن إثم_ ربما لأني حاولتُ احتكاره كي يبقى معي لكنه كان للكل. رسمتُ لوحةً تليقُ به بيد أنه لم يهتمْ،كم أمقتُ تلك التي سرقتْه منيّ وسلبتَ قلبَه وغيرتَ مَساره عنيّ، فتركني تائهة في سرابِ الأمنياتْ وحدي. يعتصر قلبي حُزنًا في كُل مرة يحاول إسعادها وينسانيّ، يفعل لأجلها ما تهواه، يبدع كيّ يجعل عالمها جنّةً غنّاء وأنا هنا أعتكفُ مع الألمِ. غيرةُ تُمزّق أوردتي، تغلُق قَصبتيّ فتخنقيّ العبرةُ، فلا تسنح ليّ بالبكاءِ. كل هذا وهو لا يلحظُ غيرتيّ لأنيّ أواريها عنه كي لا يفلتَ يديّ ويدعنّي، أتناثر لبقايا فأتيه مرارًا وتكرارًا، لذا سأصطبر على الألمِ وإن طال. يعرف جيدًا كيف يعزف على أوتارِ قلبيّ لحن الكمنجاتْ الحزين، أيَّ وترُ سَيَشُدُ عليه ،وأي وترًا سيرخِيْ، يعرف كيف يعبثُ بالأشواقِ فيّ ويحرك بأعزوفتِه وتر الثبات فِي داخليّ. يدريّ أين مواضع الآهات والألم، ومواطن الزفرات والشهقات في حناياي _كل هذا وهو لا يُحبنيّ_ يريد أن يعبثَ بقلبيّ علّه يظفر به، ويُضيفَه

لتلك القائمة اللعينة ثم يُعلِنْ انتصاره، وينسحب كأن شيئًا لم يكن، فيجعلنيّ أتمردق على بُعدِه ، ولكنه حتمًا لن يظفر!

إن بعض الظن إثم

الإدمانُ أمرٌ شاق، ظننتُ أني نسيتكَ ومَضيتُ قدمًا بلا طيفَك، وقتما أضمرتُ نيران قلبي حزنًا على تلكم الهدايا، والصور التي التِقْطنها معًا، اعتقدت أيضًا أني واريتُ طيفَك بداخلي بَيْدْ أني أخطأتُ. لم أشُك أبدًا بعد ما حذفَتُ كل الرسائل والأغنياتِ والعباراتِ العميقةَ التي كتبتَها لأجلي أني فعلًا قد تخطيتُكَ، ولكني كعادتيّ ما زلتُ أخطئ، ثم ظننتُ وظننتُ حتى نسيتُ أنَ بعض الظن إِثم، لَن أخفي كذبي ولكني أفشلُ في كل مرةِ أحاول أن تكون طي النسيان، وأطويكَ عساكَ لا تعاود ولوج قلبيّ فأظل أفشلُ المرةُ تلو المرةِ. أعتقدُ أنكَ كنتْ أجمل مِنْ أن تُنسَى، وأعلمُ أنيّ كنتُ لعبةُ بيديكَ تلهو بها وقتما تشاء، وتحركها هنا وهناكَ، لكنيّ أريد فقط بعدكَ عن قَلبــي الذيّ تراهُ يهوي الرجوع إليكَ، فأنتَ صرتَ في خاطريّ مجرد ماضي خلا وولى، الآن أقاوم لأنتزعكَ مِن قلبي الذيّ تشبث بكَ، فكما تراه هو ليس كقلبِكَ خائنٌ يهوى العبث. أيسري بصدقٍ أحّبَ ما وراء صدرك وعشقُه،لم يكن يعرف كيف يخون، كيف يمضي وكأن شيء لم يكن. عذرًا سيدي يومًا بعد يوم سأتعافى منك؛ أنتَ درسٌ تعلمتُه بعد امتحان، سأعلم الأجيال كيف تخوض هذا الامتحان وهي علـى دراية بالدرسِ. لا أستطيع أن أضع قوانين

للحبِ، بيد أنه ليس بلعبةٍ؛ ليلعبَ بها الأطفالُ مثلك، الحبُ شيء مقدس وكل من أحّب بصدقٍ لا يعرف كيف به يعبث، الحبُ أطهر من أن يدنس، فهو طاهر وللطاهرين فقط.

كش ملك

مدخل :

- سيدتي هل تحبين لعبة الشطرنج؟

- أتمزح! أنا سيدة الرقعة.

- أوه يا للغرور! حسنا هل تودين المغامرة بشوط؟!

- حقًّا! لا أظنها فكرة سديدة.

- أ هذا إعلان لانسحابك المبكر؟

- ماذا؟! لنخض الشوط إذًا.

النص :

أظنُّ أنكَ لا تفقه شيء بتلك اللعبة سيدي؛ فمن أول وهلة أراكَ قد بدأتَها بالبيدقِ الخاطئ؛ وقتئذ كان من السهلِ عليَّ أن أقول لكَ "كِش ملك" ولكني ربما حاولتُ منحكَ فرصةً حتى تُثبتْ أنكَ الأجدر.

أتدري؟!

لم أكن أُجْيدُ لعبةَ الشطرنجِ وحسبْ؛ بل كنتُ سيدَّتها، أتنبؤ بكل خطوة قمتْ أو كنت ستقوم بها، ولكنيَّ أيضًا كنتُ أفلح بالهرب، لا أرغب بشيءٍ في هذي الحياة غير أن ألوذ بالفرارِ من كل ما قد يجعلني انغمس في دوامةِ لانهائية من الضياع وانكسار القلب.

دائما ما كنتُ أمقتُ الخسارةَ، فلا أَلْجُ بنفسِي في معاركِ خاسرةَ، قال لي أحدهم مرةً: "أنتِ تجيدين الهرب كثيرًا"

حقيقةٌ أنا لا أُحِبُّه ولكني أَلْوذُ بنفسي إلى برِ الآمان، في الوقت ذاته أعشقُ أن أخوض تلك التجارب التي توصفُ أنها مستحيلة، أعشق التحدي وأمقت الانسحاب والخسارة، نقيضة بينهم؛ أمَّا مَا أثار غَضْبي وحماسي يومها هي جملتكَ الضئيلة تلك: "أ هذا إعلان لانسحابك المبكر؟"

لَمْ أولد لأنسحب، وفي خضم ذلك لستُ نادمة على هذا الشوط الذي خُضته معك؛ وإن كانت نتائجه ستعود بالوجعِ لكلانا، وأعلم أيضًا أني إن كنتُ قد أنهيته منذ أول وهلة، أو حتى ما أصغيتُ إليكَ لما اؤلنا لهذه النتيجة.

مخرج :

سيدي ...

أظنكَ بعد هذا قد عرفت جيدًا كيف تُلْعب الشطرنج، وقد عرفتَ ماهيتها ومع من قد ستخوض أشواط أخرى؛ فالرقعةِ التي قصدتها ما هي إلا "قلبي الوهن" والشوط الذي تحدثتُ عنه هو غزيرة الحبُ، وأنت أردتَ أن تُفْجِع خافقي، وتزعزع روحي.

وما أن انتهتْ فرصتكَ بالفوزِ عليِّ، حتى كَشَفَتُ لكَ تحَّركاتكَ الخاطئة، وعبثُكَ

الواضحَ، لذا سَهُل عليَّ أن أقول لكَ الآن "كش ملك".

لاجئ فوق الثرى

آواه من تلك المعمعة التي اعترتني، فثمَّة شُعور عميق ينتابني بين الفينة والأخرى يخامر روحي، يخنق محجري، تَخذلني العبرة رُبَّما اشتاق لأحدهم؟!

ورُبَّما حنين للوطنِ؛ حيث لَمْ تدع ليَّ الحروبُ أحدًا؛ لأشتاق له، إذًا فهو الوطن.

أحنُ وأشتاقُ للأمان الذي كان يحتوينا، الحبُ الذي كان يضمنا، ولو كان ليَّ بيتًا لقلتُ بيتي الذي اجتمع فيه مع أسرتيَّ، إلا أنيَّ ابن الوطن؛ فمنذ نعومة أظافري لَمْ أرَ أمًا أو أبًا يأخذ حُزني وهمي، يَمسح دمعتي، ويبذر الحب في قلبي كما وطني، ولابد أن رحى الحروب قد قضتْ عليهما قبل أن تقضى عليَّ وعلى جيلٍ لَمْ يرَ غير طغيان الجنود، وظلم المستعمر، وشتات الأهل تحت قصف جائر. الحنينُ الذي يشدني إليه قوي، ويخالجني كثيرًا ويكأنه يقول ليَّ: "لا تبتئس لقد حان أوان العودةِ"

إلى أين أعود؟

أنا لاجئ وحيدٌ لا أهل له، ولا بيت يأويه في وطنه، وطنه الذي بات كومةُ من ترابِ كهشيمِ تذروه الرياح، عصف من خرابِ،

لاجئ يقتات فتات الخبز ليطعمه لمن هو أحوج منه، فالحياة مع الحربِ لا تطاق، ليتني مت وكنت نسيًا مَّنسيًّا، ولا أرى تلك الحروب، ذلك الموت الذي يطحن الأجسادَ، دبابةُ تقتلع الأرواحَ قلعًا، صوت عجوز من بعيدٍ يقول: أركض برجلِيكَ يا بني، أنجو بحياتِكَ، وصرخات الأيامى التي تكوي خافقي؛ فيا تبًا للحنينِ الذي يخامرني للأوجاع لا غير!

أين أنا؟

ألمُ الشَّوق يَحْزُ بداخلِي، قلبي يؤلمني بشدَّةٍ، اشتاقُ لكَ، ولا أظن أني أمُرُّ بخاطرِكَ الآن، فأنت لَمْ تَهْتم بخافقي مذ أن افترقنا، أَحْنُ لقلبِكَ الذي كان يؤويني كثيرًا، تُخْامِرُني أحيانًا هواجس تجعلني أؤمن بعودتكَ إليَّ!

أ هي أضغاث أحلام؟

أم أنها مجرد أوهام؟

وهبتُ قلمي لأجلِكَ؛ فكنت بطلُ كل رواياتي، احتوتكَ قصائدي، وكنت مطلع خواطرَي، وصدر أشعاري، وقافيتي الأولى.

بنيتُ معكَ أحلام كنتُ فيها كتلك السيدة، التي تُجسد تمثال الحرية، ممسكة مشعل بيدي؛ لأضيء عتمتك التي تراودكَ من حين لآخر، وكتابُ بيدي الأخرى؛ كي أنير مملكتك التي وُضِعَ حجر أساسها بجهدِناَ، إلا أنك هدمتني وبِمَ؟ أنت تدري، فارقتني ببضع كلمات كالسُّم من على ثغركَ، كان في ختامها "العفو والعافية".

وفي مقدمتها "لعينيكِ الألم والانهمار، ولعيني السلام!"

عيناكَ اللتان كانتا أشبه برصاصةِ غدر أُطِلقتْ عليَّ، كانتا كعينِيَّ غابريل بطل روايتي الأولى ذات اللون البني الفاتح، والتي قُتِلتْ بسببهما إليسا؛ المرأة التي أحبته بوفاءٍ فوقعت فريسة الهوى، وبغدرٍ سلبت عنها الحياة. لِمَ لم تتحدث عن منخارك؟ فأنا لا أنكر أنه كان يشبه منخار بينوكيو، ممتد وطويل جدًا إلا أنك لمْ تكنُ تكذبَ بل كنت منافقًا وممثل بارع، وقد أخذت جائزة من قلبي البريء على ذلك.

ألا يا بئس لاشتياقٍ يأخذني لآلامي معكَ قبل سعادتي، أحزاني قبل فرحي، أيامي الكئيبة التي تنضح بالجفاف، والتي لَمْ يزرها غيث قط ليعيد اخضرارها؟

فيا تراك هل تذكر حتى من أكون؟

أنا تلك الزهرة الربيعية الفصل، التي خاطرت بحياتها؛ لتزهر في الشتاء فقط لأجلكَ ومن ثم اقتلعتها أنت!

أنا تلك الفزاعة التي وقفت بلا حراكَ على قلبكَ؛ علَّها تُبعد غرابيب النساء عنكَ، إلا أنك اقتلعتها أيضًا!

أنا التي كانت كمرآةٍ شفافة تجدها دائما أمامكَ، إلا أنك كسرتها وجعلتها جذاذٍ!

أنا التي كانت أنا، ولَمْ أسلم منكَ، فأين الأنا مني، وأين أنا؟

سارق الأفئدة

لطالما تساءلتُ في صغري لِمَ قد يبكي الكبار عند فراق أو سفر أحد ما؛ كان يشغل حيزًا في حياتهم، وهم يعلمون أنه سيعود حتما في يوم ما! ولِمَ قد يبكون أيضًا وبحرقةٍ أكثر عند موت عزيز لهم، وهم يدركون أنه في مكانٍ أجمل مما نحن فيه؛ وأنه التقى بأهلٍ أفضل من أهله؟

أم هي مجرد كلمات كانوا يلقونها علينا؛ لإلهائنا عن تلكم الأسئلة، ونحن في ذلك السن الصغير؟

لكن هذا لا ينفي أنها الحقيقة...

إلى أن مرت الأيام، وكبرتُ أعوام التقيت أناسٍ كانوا كالزهرِ لعمري، ينثرون الحب في طريقي ورود، كالنجومِ لحياتي، يضيئونها، يزينونها، ويهدونني الطريق، تعلقت بهم.

ولكن فجأة ودون سابق إنذار، ذبلتْ أزهاري وأفلتْ أنجمي، هذا هو الموت أو كما أحب أن أقول عنه (سارق الأفئدة) يأخذ من نحبهم خفية، دونما وداع حتى. عَلمتُ وقتها أن البكاء ليس عادة، وإنما عجز للتعبيرِ عمَّا فقدنا، ونحن على علم تام أنه لا ولن يعود، فحياتنا التي نعيشها كالخطِ المستقيم لا يسوقنا إلا

للأمام، حتى نصل إلى تمام النهاية، ولا يمكننا العودة من عليه. كبرت وأدركت أن الحياة لا تتوقف على ما مضى، والبكاء لن يعيد أحد فات أو مات، فنمر بأسوء المراحل في حياتنا، تهتريء مشاعرنا، وربما يأخذنا الاكتئاب معه في رحلة لا نعلم مدى طولها، وقد تمر ساعات لا بل أيام؛ نتجرع فيها الألم، ونصاب بخيبة الأمل، ونحن نفقد الأعزاء من حولنا، نراهم يتساقطون من أمامنا واحدًا تلو الآخر، يوم تلو يوم، وفي قلوبنا وجل وخوف من أن نُفْقد نحن أيضًا حين غفلة؛ فذلك السارق لا يتأخر ولا يتقدم. فهذه هي الحياة، وهو سنتها، ولكل منا نصيب فيها، ولكن لن يدركها أحد، البعض منا ينسون أنها مؤقتة، وأن العد العكسي لحياتهم قد بدأ منذ ولادتهم، يكابدون لأجل هناءهم ولهناء العيش فيها، دونما أن يعملوا لأجل آخرتهم، يعيثون في الأرض فساد، فينجرفون نحو الدنيا، ونحو مغرياتها، وملذاتها ناسين أنها دار فناء، وأن "كل من عليها فان" كيف لا يكون ذلك والموت يحيط بنا من كل مكان؟

فلِمَ العبث إلى الآن؟

لِمَ لا ندرك أنفسنا ونصلحها، فلا مجال للعودةِ إن سُرِقنا؛ فالذي كان بيننا بالأمس، سُرقَ واليوم توارى تحت الثرى.

بخيل الهوى

عزيزي...

ألم أخبركَ من قبل ألا تبخل عليَّ ببعض الهوى؟

فثَّمة عثرات تمر بيَّ تثير الفوضى بداخلي أفقد ذاتي، وألج في دوامة سرمدية أتيه في اللاشيء، وتحاصرني العتمة من كل مكان. تمر عليِّ لحظات لا أحتاج فيها لأي أحد عداكَ، لكن برودكَ وتجاهلكَ ليِّ يشعرني أني محض هامش على حياتكَ، ويكأني لستُ من أولوياتكَ.

حقًّا...

ألا يمكنكَ إدراك حجم ذلك الشعور الذي يعتريني؟ ذلك الهاجس الذي يعتري خلجات نفسي كذلك!

فلو كنت تدرك؛ لأدركتَ حقًّا كم أحببتكَ وأنت بي لم تبالِ، ولو كنتُ أنجبُ؛ لأنجبت منكَ بؤسًا لا غير، أحيانا كثيرة أشعر أني لا يمكنني هندمة مشاعريَّ العقيمةَ لأجلكَ؛ فالعقم الذي يحط في ثنايا روحي، وقلبي يَحدُ من بوحي بِمَا لدي لكَ، لذا تجدني لا أكتب لكَ إلا على الورق، ولكني وبكل حماقة أمزق كُل تلك

الأوراق بعد انتهائي منها، لذا رسائلي لا تصلكَ، ولكن هل ذبذبات روحي تُخالجكَ؟

ألم أخامر عقلكَ الرث؟

ألم أخالج لكَ حلم؟!

ألا تجدني في كل مكان أحيط بكَ، كما تفعل أنت بي؟

فأنا لست مثلكَ، أُسْرِفُ في الهوى بشكلٍ لعينٍ، حتى أفلستُ دون أن أشعر، وربما أفتقر لكَ، فدع الادخار جانبًا؛ فقد آن أوانك أن تبسط بيدكَ، لتكرمني كما أكرمتك وأكثر، وإلا ...أنا لا أدري ماذا سأفعل!

أرق يداعب مقلتاي

إني أرتعد من كل شيء.

أجل، أو ليس هذا من حقي؟

أخافُ البعد والهجر، الألمُ بعد الفراق، الموتُ بلا وداع، ترعبني جدًا فكرة أن أنام ليلًا ولا أستيقظ ذات يوم، فيظل ذلك الرفيق العزيز الأرق يرافقني إلى صباح اليوم التالي، لا بل يظل ملازمني كظلِيٍّ كُل يوم وأي وقتَ، ربما لم تذقُ عيناي للنوم طعم، شهر ونيف والحسرةُ تصيبني عندما أرَى الجميعَ يغطُ في نومٍ عميقٍ وأنا... بئسًا! أتمنى لو يزورني النوم؛ لأحلم مثلهم أحلامٍ جميلةٍ وسعيدة، وأتقلب في سريري يمنة ويسرةً، بيد أنه من يضمن لي أنهم يستمتعون بأحلامٍ سعيدةَ؟!

حسنًا أيها الأرق ابقى معي يا رفيقي فليس لي سواكَ من ذا يؤنسني طوالَ هذا الليل.

الحبيب الأفضل

كان لا يشبه غيره البتة، أتى مُحملًا بالسكينة ربما، كنتُ في غنى عن رؤيته؛ فقلبي بات لا يحتمل المزيد من الصدمات، فحاولت مختصرة شغف البدايات وجماله إلى نهاية تليق بحضوره، إلا أنه أثبت مكانه بطريقة أخرى، فحفر خندقًا إلى سويداء قلبي، غير آبها البتة بما قد يلاقيه من عقباتْ، ورغم ذلك الثقل الذي يعثُ بيِّ إلا أنه أنبتَ من دهاليزي حبًا من وجعِ النهاياتِ، فأيقنتُ حقًا أن الحبَ للحبيبِ الأفضلِ.

مولاي ... هل ستكون؟

أيا ليتك تدري يا عزيز، أني أرتعب جدًا من فكرة أن أهبكَ قلبي؛ فتخونه، أهبكَ روحي؛ فتسلبها الحياة، فلا كياني لي بدونهما.

احتملتُ صفعات الذل من الجميعِ، كلماتهم اللاذعة، ونظراتهم التي لا تحوى مودة، ولكني عشتُ بكياني أميرة، فلا أدري أيًا مولاي أي الأمرين هما أهون لي، أأعطيك قلبي وأهبك حبي وأضمنُ سعادتي معكَ؟!

أم التجئ إلى نفسي وأنزوي معها إلى أن تدعني وتهجرني من تلقاء نفسكَ، ثم أفقدك وأفتقدكَ وقتها أعضُ نواجذي ندمًا على فقدِكَ؟!

ماذا؟ هل ستكون ملاكي الحارس حقًّا، وسندي وعضدي وحبي الأمثل؟

حسنا لنرى!

ليتها تفهم

قالتَ والدموعُ تقفَ على شفا جُفنيها:

- ألم تعدني أنك لن تترك حبل الوصل الذي بيننا؟

ألن تكون لي سندًا بعد يومنا هذا؟

هل انتهت مراسم عشقنا حقًا، أهذي نهاية الطريق وسنفترق كأنّا ما بدأنا السيرَ معًا؟

أجبني...

لا تدعني حائرة منكَ وفيكَ ثم تمضي، ألا يجب عليكَ وضع النقاط على الحروف؟

(أجابها وهو يدعي القوة):

- أعلم أن صمتي طال، و أنتِ تودين سماع إجابة تشفى غليلكِ، ولكن!

لم يكُ علينا اللقاء من البداية، تعلقنا ببعضنا كان الخطأ الأول والوحيد..

لا غبار عليك؛ أنا الذي أحببتك وفرضتُ حبي عليك، وأخذت بيدك إلى تلك المتاهة رغما عني وعنك، حاولت إخراجك منها بيد أنك قد رفضتِ، سأنساك وكأنكِ ما خامرتِ عقلي يومًا، وأنتِ كذلك! امضي دونما وجودي يومًا في حياتكِ.

- وهل سيسهل عليّ نسيانكَ؟

- سيسهل إن أردتِ ذلك.

- لم أرد؟

- لن أكون في دفتر يومياتكِ بعد اليوم!

- ستذهب؟

- آخذُ كل ما أملك منكِ.

- أتقصد؟!

- أجل، قلبي المخبئ لديكِ.

- ألن يوجعكَ ذلك؟

- سأعتاده!

- ما هو؟

- الألم.

- وعن قلبك هل ستهتم به كما كنت أدلله وأحبه؟

- سأروضه لكي ينساكِ.

- ما الذي أصابكَ حقًا؟

- طريقة حبنا الخاطئة.

- هل أخطأ قلبكَ في اختياري؟

- ليتكِ تفهمين ما أعني..

- لا أود، لن أعدكَ ولكني سأحاول نسيانكَ!

- أتمنى ذلك.

سار كل منهما في طريق، أظنه مظلم لكليهما، يحملان في طيات قلبهما الكثير الجمّ من الحب، هو يعلم أنه لن يحب فتاة غيرها، وأنه لا يريدها إلا حلالًا، أما عنها فقد أخذت في قلبها فكرة أنه عبث بها، وقتل الحياة في عينيها، إلا أنها ما زالت و ستظل تحبه، وليتها تفهم!

على هامش الحنين

(١)

سأظل أذكرك ما حييت، وأذكر تفاصيل تلك الليلة التي أقسمنا فيها على البقاء معًا، ولن أنسى أيضا ليلة افتراقنا كذلك وذهاب كل منا في دربٍ بعد أن وصلنا لطريق مغلق ولا مخرج منه.

حسنا لم نصل لطريق مغلق كنا سنسير معا في الدرب ذاته، ولكن ثمة شيءٌ بداخلك تغير، لربما لم ترد هذا من الأول، وربما تظن أني لم أحبك وأني طريقتي في الحب لا تعجبك!

ولكن لا شيء يربطنا لكي أحبك، هكذا فقط لا شئ بيننا يجعلني أغرق بك فاعذرني سيدي .

(٢)

لا تُفلت بيدي، فأنا تمسكت وتشبثتُ بك بقوةٍ، لا تتركني الآن عند منتصف الطريق ،وتدعني أتبعثر في طي الآهات، أهذا ما اتفقنا عليه؟

أَو لم نتفق على أن نظل معًا، أرتخي وقتما تشد والعكس؟

ما بالنا اليوم لم يرخي أحدنا الحبل؟

ألم نتفق كذلك أن لا ندع هاجسُ الفراق ينخر جم ما بيننا يخامر قلوبنا الثكلى؟

حسنًا،لم نتفق.

ولكن ما الضيرُ في أن نتفق الآن؟

ولكن أرجوكَ لا تُفلتَ بيدي .

(٣)

أيقنتُ الآن أني هُزْمتْ خسرتُه، حقًّا كيف لي أن أصير بتلك القسوة كيف تركته يذهب؟

كيف فارقت قلبه الطيب؟

أنا الآن أعترفُ حقًا أني أحببته، أحبُه أحتاجه وأحْنُ إليه كثيرًا فهل سيسامحني هل سيغفر لي؟

ويأتي لكي يمسح دمعتي ويؤويني إليه، فأنا لم أجد منه أحن إلى روحي عليَّ.

(٤)

عزيزي صاحب القلب الكبير، منذ ذلك اليوم الذي سار كُل منا في طريقه، ليواصل في تحقيقِ أحلامه، وأنا لم استطع أخُرجكَ من ذاكرتي، فلقد استحكمت بها، استوطنتها وصرت تردد على مسمعي: كيف للإنسان أن يلجأ من موطنه، أليس من حقه البقاء في وطن كُله سلام؟

أجل من حقك هذا يا عزيزي، ولكن ألم نتفق على النسيانِ، أو نتخذ التناسي شعارًا لنا، ولا يحقُ لكَ خيانة ذلك الاتفاق!

لعنة الذاكرة

(١)

يا له من شخصِ أناني؛ يريد أن يستوطن قلبي، أن يعقد زمام عقده فيه؛ ليصبح مِلكَهُ ثُمْ يهجرُه، يدعه للرياح تعصف به، ثُمْ لا يبالي إن ضاعَ في متاهاتِ الطريقَ، لا يريد أن يحل محله أحد، فقط أن أتعذب أنا بذاك الحب، وأن أكوي قلبي به، وتكتسي روحي ألمًا حزنًا، وضياع في سراب الحكاوي، تتشتت في داخلي كل الكلمات، تتبعثر الأحرف حرفا تلو حرف فيصير جوفي مغارةُ حُزن وعذاب، تعبق فيها الآهات.

(٢)

لا شيء يعصف بقلبي يحركه، ويعبث به، أصبحت جامدة، لا أتحرك، وما عاد يعنيني شيء، اكتئاب ثم اكتئاب يا مرحبا به.

الألم، الحزن، والخذلان تلك مشاعر اجتاحت داخلي، امتزجت به فصبغته بالأسود؛ قلما ما نجد السعادة يا قلبي فلماذا كل من يلج حياتنا، يقوم بتدبير جريمة سرقة فينفذها ويبقى لا يهرب فقط؛ لكي يكوي قلبي ألما ،حزنا ،وشقاء.

(٣)

لماذا كلهم يلجون حياتنا لينسفوها، ويدمرونها تدميراً، ونحن من نفتح لهم أبوابنا على مصرعيها؛ بحجة أن البشر كلهم غير متشابهين، إلا أنهم متشابهون، أنانيون يحبون الطغيان.

قلما نجد أشباهنا أرواحاً طاهرة لا تهوى الغدر، قلما نجد أولئك الذين يزيلون الألم عن حياتك ويزيحون الكآبة عن طريقك، ولكنهم حين غفلة يختفون، فتصطدم مجددًا بالطغاة؛ الذين يسدون الثغرات عليك، يقتلون قلبك، يدمرون روحك المرحة وينثروها إلى فتات.

(٤)

عَلنا تَعِبنا مِن أن نثبتَ لبعضنا نظرية أن الأصابعَ ليست مُتَشَابِهَة ؛ والكلُ مختلف فقد بات أولئك البشر وكأنهم شخصُ واحد، تَظل تلك الطبائع مُتَشَابِهَة وكأنّها مَمزوجةَ بِبَعَضها البَعضَ.

(٥)

كبرت ولثمت روحي بلثام الوجع كي لا تبصر ماضي لا يليق بها، كبرت وألجمت فؤادي بلجام العفاف، ولكنه ما زال يُسْرقْ، روحٌ مغطاة بالشجنِ لم تألف هذا اللثام إلى الآن.

(٦)

كُلنا مُؤقتون في حياةِ البعض منا، إننا أشبه بمن هم في زنزانة مؤقتة، نظل محضُ احتياط، خطُ على الهامشِ، ضوءُ خافت، ذكرى باهت خلف جدران حياتهم.

لدينا فترة معينة وبعد انتهاء فترةُ صلاحيتنا تلك لن نكون محط اهتمامهم سيقذفوننا بعيدا عن حياتهم.

(٧)

قَلما نَجِدُ أرواح تُشبهُ أرواحنا، فكلها أضحتَ متُشابهة، طَاغيةَ، ظالمةَ، مُتكبرةَ.

فقَلما نَجِدُ الخيرَ في قلوبِ الآخرين، تلك الطيبة، التي تُضاهي تَفتح الوردَ في الصباحِ ما عادت موجودة.

(٨)

لا زلنا نخطئ الاختيار، لِمَ دائما حظنا سيء، لِمَ لا نجيد فن الاختيار، ونتسرع في منح قلوبنا لمن كانوا لطفاء معنا، تبا للحبِ الذي يغزو إمبراطورية صامدة و يهزمها.

(٩)

يزورنا الحب خفية ، فيتمكن في قلوبنا شيئا فشيئاً ثم يكبر

ثم يتخذ حينها مكاناً قصياً ليظل أبدياً...

(١٠)

اللعنة على أولئك الذي يتقدمون ناحيتنا، ليتوغلوا في دهاليزنا، ألم يخبركم من سبقكم أن الباب مغلق إلى أجل غير مسمى؛ فلم التسلل من وراء من حجاب؟

(١١)

هكذا هي البدايات تواصل نثر اللعنات على قلبي المرهف، تؤدي السطو على مغارتي المظلمة، و إضاءته لي ويكأنها السعادة التي كنتُ أفتقدها!

الخيبة

لكم أشفق على روحي في هذه اللحظة!

فهي تائهة، مشردة، ضائعة في دهاليز الحياة، ولا تدري عما تبحث، تجول هنا وهناك، دونما العثور على فقيدها؛ الذي ربما تحاول إيجاده. لكم أشفق على ذاتي التي تقع ضحية فخاخ الحب، فبالأمس كان بقربي واليوم هو بعيدًا، لا أعلم عنه شيء، بالأمس قال لي: "لن أفرط بكِ" واليوم أنا وحدي، وحدي أقاوم شتات روحي وضياعها، انكسارها، وألمها.

اليوم لا حديث قد يشفي جراحي، ولا حتى صوته الذي يسكرني سيعيدني لوعي.

صخب الحنين

(١)

حين الحنين يشدني ويضمني، بكلتا يديه يضمني ثم يخنقني، حينها تجحظ عيناي ناظرةً إلى ماضٍ قد كان الكل، وكل الكل بالنسبة لي، أرى بقعة معتمة يحيطها أقترب ببطء ناحيتها؛ فلا تراني أبصر شيء ومن ذا يرى من بين الظلام؟

أخط خطاي مقتربة أكثر وأرتطم بثمة شيء أرى بقعة أكثر سوادً من التي قبلها، يشع من بعيدٍ ضوء خافتُ أبصر من خلاله حب قد انقضى وولى من سنين تاركًا خلفه فتاة مُعلقة ومكتظة بالوجد والحنين، مترعة بالأسى ودمعات الأنين. منذ أمد بعيد وأنا أجترع كأسات فراقه على مضضٍ، فلا الهيام الذي يقولون عنه زارني، ولا قد طرق باب خافقي من بعده قط، توجس في داخلي شيء من الرهبة وقتما تناهى إلى مسمعي لحن قيثارة متقطع، اعتقدت أنه كره الفراق وألِفَ اللقاء؛ ذلك اللحن كان أشبه بذاك الذي يعزفه على كمنجات الهوى وقت السمر، حينما يغازلنا ضوء القمر، وقد ظل على هذا المنوال إلى أن تضاءل ثم تلاشى واختفى، فعدت إلى هامش الحنين، واقفة على شفا جرف منه. أحيانا يشدني ثمة حلم في داخلي، فتراني أطمع

وأرومِ إلى التطلع في دروب النضج، فلا يضرني النوى والبعد، أود حقًّا ترك هذا الطريق السرمدي. وأحيانا أخرى يجتذبني ثمة شيء لا أدري ما هو! نحو قاع أبدي، يطمرني لأسفل؛ كلما قاومته يصر جازمًا على غرسي أكثر، بيد أني لن أتراخَى له حتمًا. ولكن كلما تراخى فؤادي، وصلني صوت بعيد، كلمات كله قوة تُعيد النور إلى تلك الدهاليز المظلمة، يقول لي: "تشبثي بالأملِ، اخرجي من ذلك السديم الذي اقحمتِ به روحك، لا يمكنكِ المكوث هنا طويلًا". حقًّا أعلم أنه لا يمكنني الصمود كثيرًا في براثن الظلمات وحدي، فما أقحمتُ به ذاتي محض فراغ وأثير، فأنا لا يؤلمني رحيلكَ، بقدر ما يؤلمني ترككَ لي فارغةً تمامًا من الشيء واللاشيء.

(٢)

خافقي يُعلن ثورته، دمعي يُعلن تمرده، جسدي يُعلن تحطمه إلى قطعٍ جذاذ، وأنا...

أتكئ على هامشِ الأيام أصارع ما تبقى من ذكرياتي؛ التي تودعني يوم تلو اليوم، لحظة بلحظة لتلج في أثير سرمدي، ولا أجد ورقة أو قلم لأكتبها واحتفظ بثمة جزءٍ منها، أو التقط ما يكفيني ويقيني من هشاشة الروح، وانكسار الخاطر.

مُصابةُ بالزهايمر هكذا قال لي الطبيب عند آخر مقابلة لي عنده، ولكن أيَّ يوم أخبرني ذلك ومن كان معي لحظتها لا أذكر!

ولا أدري إن قال لي ذلك حقًّا أم أنني أدعي.

ولا أذكر أنني أتعنى ذلك، ولكن هذا ما يصفني به بعض أولئك البشر المتمردين! الضاجين من أسلوب حياتي، حيث لا ينفع ضجيجهم، ولن تعود مياههم إلى مجاريها، هم وحدهم من نبشوا أحلامي، نهشوا ألآمي، شدوا على روحي. روحي التي كانت مُعلقة على خيط رفيع؛ فانقطع وتناثرت ذكرياتي.

ثمَّ...؟

تركوني أعاني في دهاليز الأوهام، ولا مناص لي منها، ومن فرط العناء تلبسني الحنين وارتسم بيَّ. حاولت اختزاله واكتناف الوحدة، علَّني أودع عصر خذلانهم، أودع بحر طغيانهم؛ مارست طقوس لم أآلفها قُبَلًا، رسمتُ بفرشاتي زورقًا يخرجني إلى شاطئِه، جدَّفت عكس براثنها، حاصرني وهم آتي متلهفًا هو الأخر ليعانقني، ليضمني نحوه، حاولت الفرار منه، أحدقني بكلتا يديه، رفعت بكلتا المجدافين لأحاربه، إلا أني أدركت أنها أنا، نفسي، وذاتي، ولا ثَّمة أحد هنا غيري، أنا من أحاربها ولكن من أنا؟

صاحبة الملف ٨٤٩ مريضة بالزهايمر، إلا أنهم قتلوني، وقتلوا جُل أحلامي.

لعنة الهوى

ربَّما هو مختلف عن سواه، قلبه، وهج مُقلتيه، وابتسامته المشرقة الجميلة بين شفتيه وعلى ثغره كأنها شعاع. ربَّما هو مختلف بفطرتِه؛ لأنه لا يماثلهم، لا يشبه بنو البشر، أو ربما لأنه بعث بموجة عبر الوريد إلى دهاليزي، كما أنه على قلبي مختلف، استطاع الولوج إليه، رغم أني كنت موصدة بالبابِ جيدًا، استطاع بكلمته أن يجتذب نبضات خافقي، وأن يسرقني نحو خافقه، أن يعزف على نياط قلبي لحنه الخاص، ويصبغ كذا لونه الخاص، وأن يعتكف عند دهاليز فؤادي علَّه يصل وتستجاب دعوته، فكانت دعواه هي الأقرب إلى الله مني.

إنيَّ أحبه يا الله؟

لا أدرى ربَّما، ولكن يحتم عليَّ البعد قليلًا، حتى لا أتعلق به ويؤلمني بعده ولو لدقيقةٍ مني؛ فأنا إن أحببت؛ تعلقت، وإن تعلقت؛ تمسكت؛ وإن تمسكت قد يتأذي ويلوذ بالفرار بُعدًا مني، وأني وايم الله لا أريده أن يتأذي بقربي، ولا ببعده أتأذي أنا.

فصول حبي الأعمى

لِمَ لم تعد بعد؟!

أهان عليكَ قلبي، أم هنتُ من نفسكَ إليكَ، أهانت عليكَ روحي، ولا بقاء لروحي من دونكَ، حال حالي إلى الزوال، كما حلَّت الفصول وأنت لم تفِ بعد بالوعدِ.

تساقطتْ الأوراق على خافقي، وطفقت تستر جرحًا ألمَّ فجأة به، في الخريف ذاته وعدتني أن تعود إليَّ عندما تهطل أمطار العام القادم، لتكمل لي قصصكَ عن رحلاتكَ، يا ماجلاني.

ها قد حَّل الخريف على قلبيَّ، حاملًا معه الأماني، كل تلك الذكريات الجميلة، منسوجة كأوتارِ كمنجةِ عتيقةِ، تَضُجُ بنغمِ الفراقِ وأنا بداخلي أعانيَّ.

و صوتُ كروان نشاز، قد آسر الأغصان حُزنًا، لَمْ يُرِد ذاك الوداع بلا لقاء.

قد أكون أنا من انتظرت عودتكمَ كثيرًا، ولكنكَ لمَ تَعد؛ مثَّلما عَاد مطر الأمنياتْ الذي أقسمنا تحت هطوله ذات مرة أنَّا لن نفترق وإن طال غيابكَ!

أنتما عاهدتماني، ووفى بوعدهِ لي، وأنت لا.

ثم...

تتبدل الأحوال مجددًا، ويحل صيف يهبُ عليَّ بنسماتٍ باردةِ بين الفينة والأخرى، وتَمُر على قلبي عابرة لا تستقر، وأنا ما زلت أنتظركَ وأنتظر عودتكَ إليَّ، أن تجعل قلبيَّ يشعر بكَ مُلتهبًا بحرارتِكَ كحرارةِ الصيفِ، تعانقه شوقًا ومتلهفًا لهذا العناق، تلتحم حرارتنا، فتتبخر مشاعر أحدنا، أو كلينا، ومن فرط الحنين تمُطر حُبًا وجدًا، وصبابة.

حتى الربيع حَّل و دَبَّ في أواصري عبق الحياة، خلَّل فيَّ نشوةَ القدوم، هيأنا لسراب لقاء ورسمته في مخيلتي واقعًا، انتظرتكَ فيه وأنت لم تعد.

وأتى الشتاء مضني قارس، قسى على قلبي بجفافهِ، لم يجلب ليَّ سوى عصف برودكَ، تسلل في جسدي ليلعنني بلعنتكَ الأبدية، وأنت...أنت تعلم جيدًا ماذا فعلت؟

روايتنا التي أرويها للقمرِ والطرقاتِ التي كُنَّا نتسلل ليلًا لنتمشَى عليها، باتت أنقاض، وهكذا حلَّت الفصولُ على قلبي وأنت لمَ تأتِ، وأتى خريفٌ آخر يخمد لهيب ذكراك في ثنايا خافقي، ولا سبيل له لإخماد نارٍ بلا لهب.

عبثية المشاعر

طفقتُ على قلبي ببضع وريقات من مشاعرٍ جافةٍ، علَّها تسترُ ما انقشع منه؛ عندما عصفت عليه بعض من الذكريات، وتسترُ ما بدتَ من سؤته؛ فصار يئن وينادي أن لا حَبْ يقطن حناياه بعدكَ.

وطفقتَ عاصفةُ الأحزانَ على مُهجتيَّ، وتضاربت مشاعري، أو تدري حقًا ماذا يعني لي أن أحبك؟!

شعورٌ غريب اجتاح داخلي، عبثَ بوتيرة الحب لديَّ، ضاعتَ الكلماتَ مني وتشتتَ أفكارُ قَلبــي، أي حب أنت، وأيَّ أثر تركته بعدكَ؟!

صحيح أنكَ بَعُدت، وعني اغتربت، فريثما أحاول تجميع ذاتي، واستعادة كياني وكينونتي، أراك تستعد لتشتيتي مجددًا والعودة إلى دار صار لكَ.

لعبة الذكريات

أفل ضوءٌ يتيم عن دهاليزي ولم يضيء مرة أخرى، أمسى خافقي حزينًا مجدبًا، و خوى داخلي. انطفأت ابتسامة كانت يوما ما تشع في ثغري؛ لربما اختفاء أبديًا! وربما حتى يُكتب لي لقاءٌ آخر مع من سيعيدها، لم أكن يومًا أؤمن بالحب فما استطاع أيَّ شخص مرَّ علي من بعدهم أن يختطف قلبي ولو لمرةٍ فأنى للذكريات أن تقتحم حياتي لتحط بقلبيَّ وتجود علي بفيلمِ ينقلني من حاضري إلى ماضٍ لم يفارق لُب عقلي وتوارى بالدمع خلف جدران القلب؛ ماضي فيه لهفة، ولعٌ، وكثير من الحبِ، ليُسطر حكاية أسميتها ذاكرة الفراق. مرَّت أعوام ونيف مُذ افترقنا فلم أدرك لحياتي معنى دونما وجودهم، ارتخت يداي ولم أجد من ذا يشد أزري ويسند عضدي، ينتشلني كإبرة من كومةِ الضياع؛ فقد كانوا يد النجاة لي. تضافرت عليَّ الدروب الوعرة فما وجدتُ لها مخرجًا فقد كانوا بوصلة هدايتي، الروحُ أظمأت للقياهم، ومن فرط الحنين تزعزعت، تملكني الرهق، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبتْ وطال الرجاء لرؤيتهم، ولتلك الشجرة التي نسميها شجرةِ الحب العذري والتي كانت تضمنا وتضم قصصنا وحكاياتنا، أتراحنا قبل أفراحنا، ضحكاتنا همساتنا،

وتحتضن دمعاتنا. هي التي جمعتنا بقوة، وفيها تفرقنا قاطعين ميثاقًا ومتواعدين باللقاءِ.

أعزائي، من خضم عزائي أناديكم قد تكالبت النكبات والمصاعب وفقدت كل مشاعري، اتخذتْ الوحدةُ بيتًا وهنًا في لبِّ خافقي و استوطنته، فقط لأنَّ سنين كانت تضمنا ولَّتْ وحالت الظروف إلى رحيلِ كُل منا في دربِه. وإن كان لابد لنا أن نبتلى بالحزنِ فقد ألحَّ علي الشجن وتجرعت كأس الفراق، فبدأت الذكريات تنثال عليَّ لكنها لم تجتذبني إليها عدا ذكرى متمردة فاتنة، تربعت في ثنايا الذاكرة أضحت تكبر يومٌ تلو الآخر، فكانت هي الوحيدة التي استطاعت أن تختطفني شعرتُ أنسامِها تتسلل إليِّ لتحتل مقعدًا في سويداء قلبي؛ فكان عنوانها فراق الرفاق؛ بسطاء القلوب من يهدهدون روحي لتنعم بالسلامِ رغم الملحمة التي كانت تدور في أعماقي.

يا ويحي! وويح الأنصاف في خاطري! لطالما كانت حياتي أنصاف: نصف فرح، نصف حزن، نصف حب، وربما نصف مقت، إلا أني عشتُهم كاملًا في الصداقة.

لم يدم فراقنا سنواتٍ طوال إلا أني كنتُ أحسبه دهر قد خلا، لربما كانت وما فتئت لحظاتي معهم أجمل من أن تُبهت وتختفي أو لتتفتت وتصبح رماد في عتمةِ الذاكرة؛ فملاذ الروح هم وملجأ الأمان لقلبي، هبة و الاء من اللَّهِ علي، وجودهم كان مترع الأفراح في دهاليز الروح فلا رأيت ولم أرَ بؤسًا يخامر أيامي بوجودهم. معهم تأن قوتي فلا الهشاشة تكسرني ولا

الرياح تهزني، توثقني معهم حبال من الذكريات التي نُسجت عليَّ يقينًا أنها لم ولن تنقطع، أساسي المتين الذي به أستقيم. يهلون بالسعادة على خاطري وينثرون عليه أريج الأمنيات، تتيسر معهم الطرقات، ينتشلونني من مغارات الكآبة وينفشون الحب فيها كأنفاس الصباح، يفطمون روحي بماء الذهب، مروءتهم ونخوتهم ليس لها صنو، وخافقي المنطفئ والذي ما برح ينبض بحبهم يهتف: أيا ذكرى بداخلي لا تموتي ولتحيي أبد الآبدين، أيا شمعة ذوبي ولا تخافي فأنت حتمًا مع كُل شُعلة ستكبرين، وإن طال فراقنا لابد لنا يومًا أن نلتقي.

تغريدٌ حر

في غابرِ الزمان ومنذ الأمد البعيد؛ لا ليس كذلك فهو ليس بعيد لذلك الحد، وقع نظري على طائرٍ ناصع البياض، عذب الصوت، شجن اللحن، وقوي الجناحين.

حَطَّ فجأة على قلبي، أحببته وأَسْرتُه في قفصٍ ذهبي خاص؛ في بادئ الأمر كان غريبٌ عليه ذلك، ثم اعتاد الأمر. ولكن عندما رأى بقية الطيور من حوله؛ بدأ يتمرد، ويكأنه اشتاق للحريةِ، أو هو كذلك.

رفرف بجناحيِه محاولًا أن يخرج من القفصِ، بيد أنه فشل في الإفلات، بالرغم من أنه لم يكن ضعيف البنية. حقًّا هو لم يكُ لي منذ البداية، ولكنيَّ أقنعت عقلي الباطن بعكسِ ذلك، فاقتنع واقتنع قلبي معه.

في صباحِ يوم مشرق وجميل شعرتُ بثمة شعور يحز فؤادي، أظنه كان شعورًا بالذنب، فقررتُ إطلاق سراحه متأكدة من أنه سيعود؛ لأنه بلا شك ليِّ ولن يكون لِغيري، لذا ما من داعي لأن أخاف عليه، فانطلق محلقًا دونما أن ينظر خلفه ليودعني، وأنا لم انتظر يومها عودتَّه البتَّة.

تابعت حياتي كأي أنثى في بداية حياتها، محافظة على مكانةٍ طائري في قلبي، حيث أني لم أعد أحاصره، كما كنت أفعل سابقًا، ولم أراقب وجوده في حياتي، ولا انتظار عودته، إلى أن اقتحم حياتي طائر أبيض و أجمل؛ كأنه قد كُتب لي، ليمحو ذكرى سابقه، أصبح هو كفايتي وسعادتي، لم تمر يومًا ذكرى سابقه المطلق على خيالي قط، فلم يجعل لي جميلي مجال لأتذكره، ولكن ما يجعلني لا أنساه، هي تلك الرسائل الورقية التي ملأت دفتري وأنا أكتبها له، وتلك التفاصيل عنه التي جسدتها في دفتر مذكراتي، إلا أنيَّ لستُ خائنة أبدًا.

لم أمزق دفاتري ولا رسائلي تلك، لأنيَّ أحب الاحتفاظ بذكرياتِي، ولكنيِّ فقط اقتنعتُ هذه المرة وحقيقةً ، أنه لم ولن يكون لي، ولا مجال لعودتِه الآن.

فانوس الحب العذري

فانوسُ مضيء لم يخمد نوره البتَّة، ظَّل طوال تلك السنون وفيًا لحبٍ لم تهتم له أنت.

روحٌ توارت خلف ضباب الذاكرة، علَّها تستر ما كشفته بعدما هربت وتركتني وراءكَ، فبأي ذنب خلفتني للصبابة لتنهشني؟

أحجيةُ ما وجدتُ لها حل مذ أن تركت يدي وذهبت.

قدرٌ أتوق لأعلم ما قد يخبئه لنا، هل سيجمعنا أم ستكون تلك الأحرف السوداء والتي حملت في فحواها (فراق) مُلتصقةً بقلبينا؟

كنتُ أشبه بمن فقد ذاكرته وعاش وحيدًا في كوخٍ مهجورٍ عن العالمين، لا أحمل في حنايا روحي شيء سوى سؤال واحد يكتنف بخلدي أن متى سنعاود اللقاء؟

و لربما ألفتَ فراقي، خافقي الذي بوأ لك مقام فيه بات جاثمًا ويظل ينبض قائلًا لي أن:" أفيض عليَّ ببعض الحب، علَّي أطفق ساترًا نُدب تلك اللعنة التي حلت علينا" فعلت له ما أراد ولكنك كحيةٍ تلقف كل ما ألقيته له من ودٍ.

صندوق الذكريات

(١)

أيها العزيز في داره، اخبرني متى تعود ليلتئم الحبُ قبل القلب؟ أنت الآن بعيد عني ومن فرط شوقي إليك يكاد خافقي يتمزق إلى قطعٍ جذاذ، وكل قطعةٍ منها تود أن تبحث عن أقرب الطرق التي تؤدي إليك _وكلها تؤدي_ علَّها تعيدك إلى مأواكَ ومقامك فيه. فالحنينُ أشبه بالسرابِ، الفراق نارٌ تكوي خافقي المكلوم، الضبابُ يعم روحي حتى فقدتُ ذاكرتي فلا تراني أذكر ثمة شيء إلا أنك وعدتني أنك لن تتركني هنا وحدي، فما بالك منذ أن غادرتَ اكتساني الضباب بلونه المبهم، فقدتك يا نوري فبتُ صماء لا تسمع سوى اسمك، عمياء لا تبصر إلا أشباهك الملايين _عفوًا فقد تعديت الأربعين_ و ما لي أراني في ليلٍ وحدي لا اهتداء فيه ولا نجم؟

(٢)

لم تنطفئ نارٌ أضرمها خافقي منذ أن وليتْ تاركًا إياه في بيداء بلا هداية ولا بوصلة ترشده الطريق، ولم يتماثل عقلي للشفاءِ منكَ يا جرعته الضائعة وملذته التي فقدها بغتة، فأنى لقلبٍ

وعقل في جسد إنسان هزيل الروح أن يظلا تائهين ومنطفئين؟ هل لك يا من أسميته ذات يوم مأمني أن ترشدهما إلى طريقٍ خالٍ منك وينسياك؟

وكيف للمحبِ أن ينسى قلبًا أفجعه؟

(٣)

في ليلةٍ دهماء دلماء ودعتني، ومن يومها لم يُكمل البدر دورته، تغير كل شيء حتى قوانين الطبيعة، فما عادت الشمس تشرق باسمة من مدارها لتداعب زهيراتها الصغيرات -التي ذبُلت هي الأخرى- وما عاد الغيم أبيض اللون، بل اكتفى بالرمادي رداء له، والغيث ما باله؛ كدموعِ مُحب تنادي باللقاءِ إزاء فراق جائر ليُكمل الحبُ دورته كما البدر، ولكن تلك لعنةٌ ألقيت علينا حين غفلة فتركتني بلا وطن، والوطن هو أنت، تركتني بلا ملجأ وقلبك هو ملاذي، صرتُ محض لاجيء من حرب دون راء، فتبًا لك يا من أضاف الراء لحبنا العذري، فنسى ما بيننا ومضى.

وابل من الخيبة

هي الآن تُمطر!
ليْستِ الغيومُ، وإنَّما مُقلتَايَ كشلّالِ عاشقٍ فاضتْ مشاعره، و قَشَعَ بحبه لصخرةٍ صمَّاءَ على أحدِ جانبي النهر، ولكنها رفضتْه دون أن تُبْصِرَ عظمةَ حُبِه لها.
كغيمةٍ عابرة، مَرتْ على جبلٍ يقف وحيدا ولا صديق له، ولا حياة على جانبيه، والوحدة غصّته فمنحته حبها، وأمطرتْ عليه؛ فاخْضَرّتْ جوانبُه، وأزْهَرتْ أرضُه، ونمَتْ ورودُ العشّاق عليه؛ فأصبح رمزًا للحب، ولكنه تعالى على الغيمةِ، فنبذها ورفَض حبَّها، دون أن يبصر عظمة ما فعلتْه لأجله.
وعندما تُضَحّي لأجل من تُحبّه، فإنّه يُجازيك في الغالب بما لا تُحبّ، وقليلٌ أولئك الذين سيُقدّرون قِيمةَ تَضْحِيتِك، تلك هي الحقيقة في الحبّ ولكنّ أكثرَ النّاس لا يُدركون؛ فأن تعطي دونما مقابل هبة لا يتصف بها الكثيرون.
لطالما ضحّيتُ بِمَا لدي لأجلها، عانيتُ الأمرين لأجل أن تَهْنَأ، ولَمْ أكترث بِرفضِها المُتَكرر لي البتَّة، وليتني اكترثت؛ فجُل ما كنتُ أفعله كان لأجل أنْ ترْسُمَ ابْتسامةً على ثغرها؛ لتُشْرِقَ شمسُ صباحي؛ لأنه لا يبدأ لي يومٌ دون ابتسامة منها، أو هذا فقط ما رسمتُه في مُخيّلتي لَمْ ترَ قط عظمة حبي الأعمى الأعرج الذي لَمْ يُبصر سواها، وقادني إلى دربٍ لا يقود إلا

إليها. أمَّا عنها فهي كالصخرةِ الصمَّاء، برودتُها القاتلة قتلتْني قبل أن أحيا، تركتُ بين كفيَّها روحي لتَحْتَضِنَها وتَهَبَها بعضا من جمالها، فوَأَدتْها قبل أن تُدْرِك معالمَ الحياة.

ظننتُ أنّي لم أرَ جمالها، ولم أحبها قبله قط، فعلِمتْ هي الأخرى بحبي لها دون رؤيته، فتَكبّرتْ وبحبها ليَّ تجبرتْ.

لكم تمنيتُ لو كنت أعمى ولم أرها، ولكنّي حتمًا لن أُبْصر في قلبي سواها، لأن فؤادي كان سيهواها دون رؤيتها، فإنها سعادتي وشقائي، همي وفرجي، دائي ودوائي، وليتها تكون مظلتي، وتحميني من نفسي، عندما تمطر مقلتاي كما الآن، فإنهما لا تهطلان إلا أمطارا خائبةً.

المقبرة

كانت تُزيف الحقيقة عن واقعه، ربما لأنها صغيرة العمر كبيرة العقل والعمر، استطاعت أن تُبدع في رسم لوحة له تماثل الموناليزا واللوفر هو أيسر صدرها، استطاعت بدهائها إقناع الجميع بجماله، ولأنها مدللتهم لم يكسر لها أحدًا كلمة، الجميعُ كان يحبها عداه فقد تركها في مرسمها تخاطب الألوان وريشتها له وحين غفلة رحل، فؤادها انكسر ولكن ما برح ينبض باسمه، لم تكرهه رغم أنه ابتعد، تشبثت به فمزقت رداءه من قُبلِ حُبًا ومن دُبر، انتحبت بكت كان الرصيفُ مقبرَة دموعها، لم تنسه قط! وهو الآن يستمر في طريقه، بعد أن مَّزق تلك الصفحة التي في فحواها تفاصيلها، وهي فقدت حياتها وشعرها مزين بريشتها التي رسمت بها لوحته ولكنها كانت مكسورة كقلبها.

من أي زمان؟

من أين أبدأ أيها السيد؛ قل لي بربك من أين؟

حاصرني الزمان سويعة، ولمحتُ صورة عبرت من ماضي مبعثر، فبعثرتني وأنا لذاتي لم أعثر!

خالجني شعور غريب، وعاتبني ثمة طيف ولا أدري لمن هو، هل هو طيفكَ؟

أم طيف الزمن الغابر، أم ثمة زيف في أحد الأزمان.

لا مناص أيها السيد!

ففي دهاليز نفق مظلم وجدتني هناك

ثمة ضوء قادم من آخر هذا النفق

رويدا.. رويدا يقترب!

لكن لا شيء يداعب خافقي الصغير

ولا حتى أطرافي الباردة

من سيجيء لينتشلني من هنا سيدي، من أخبرني؟

الوضع يزداد سوءًا هو لا يبشر بالخير

وذلك الضوء صار بعيد جدًا

لا مهلا توقف لا تبتعد

فبداخلي المئات من الثقوب؛ التي تسنح للأوهام بالتسرب إلى دهاليز روحي المفعمة بالحياةِ، وتنتهكها، ثم تحولها إلى حقيقة بداخلي.

بداخلي مئات الثقوب؛ التي تكالبت عليَّ، وسدتَ كل يدخل إلى خافقي سعادة، كلما حاولت إغلاق ثقب ينبثق آخر، ويقول لي: لا تحاولي لأننا لن نخلعكِ منَّا.

لكم أمقت هذا الشعور، أن تكون في سجن بلا سجان، وحدي والأوهام، تعث بيَ هنا وهناك، ثم يبقى سؤال واحد يخالجني، يرمي بي في عالم العتمة دونما ضوء، ألا وهو من أنا؟

ماذا لو كنت غيمة، نجمة، قمر، قطة، ثم تحولت فجاءة إلى إنسان؟

ماذا لو كنت شخص آخر، أتى من زمان آخر؟

سئمتُ جفاءك

ألم أخبركَ يا عزيزي أنيَّ سئمت؟

أجل ...

سَئمت قَسوتك وبرودكَ وجفائكَ المُستمر

سئمت وجودكَ الباهت وردودكَ الجافَة

وصدي كثيرا عند بابك وأمام قلبك المتحجر

إذًا لِمَ طرقت باب قلبي إن كنت لا تحن

وقلبك بالأشواق؛ لأجلي لا يئن

إذًا لِمَ بادرتَ ونزعت عن قلبي السلامِ؛ وهو به مُنَعَّم

لم يشكُ لي يومًا من رحيل أو غيابِ من حضور باهت

أو ود يمر بناظريَّ، ولم يضجر.

أتيت إليّ ونزعت منه سلامُه؛ لأجل أن ينعم بالحب_وليته لم ينعم_ تحت جناحك الذي لا يرف وأنت بطبعك لا ترأفُ له أو لسواه، أوَ حقًا تستحق أن يطلق عليك لقب إنسان؟!

لا أدري ولكنني أعتقد أن لا.

فأنت أقسى من أن تحمل هذا اللقب على عاتقيك.

يحق لك أن تهجرنيَّ ما استطعت ولكنك ستظل دائمًا أفضلهم بالنسبةِ ليَّ أتدري لِمَ؟ لأنك اقتحمت قلبي بكذبةٍ وأنا بطبعي صدقتُكَ وليتني ما فعلت، عادتي متى مَا أردتَ إلا أنيَّ لن أنسى وجودكَ ذات يوم بقلبيَّ.

وحدي من عبثت بدفاتر الماضي وقّلبتها، فكانت نتائج هذا العبث تلك الوخزة التي اعتصرت قلبي، لكأنّها تقول لي: "تستحقين أكثر من هذا، من سنح لك بفتح بابٍ مُوصد من سنين" وتزيد ضغطها على خافقيَّ الوهن، أيَا ليتني تراجعت قبل فعلتي تلك، ولكن بم ينفع الندم؟

عذرًا فؤادي...

وعذرا لك سيدي...

ثم عذرًا لنفسي..!

فهل حقًا أنني سئمتُ؟

يا من يسألني من أنا؟!

ما بين الماضي والحاضر، ولجتُ في قفزة زمنية، أتساءل فيها، من أنا؟

فأنا لستُ أي منهما، ربما أكون المستقبل!

فأنا لستُ إنسان، أو حيوان، لستُ كائن حي حتى!

ربما أكون شيء، أو لا شيء!

هل أنا ابن الشمس؟

وربما أكون ذلك الشعاع الذي ينعكس على القمر؛ ليستمد ضوئه مني!

قد أكون صوت الكروان الصداح، وربما أنا للصوت صداه!

هل أنا رياح الجنوب، أم عاصفة تهب من الشمال؟ وربما موجة عاتية تدمر كُل ما أمامها، دون أن تبالي بِمَا قد تُخلِفه من دمار.

هل أنا مُجرد سديم، أم مجرة بها أنجم وكواكب عدّة؟

لطالما بحثتُ عمن يجاوبني على هذا السؤال، هل أنا الصفة، أم الحال؟

وربما أكون الشعور أو حُفنة ذكريات، وربما لحن موسيقى يتسلل من أحد الالآت، ويُعزف ليداوي الآهات!

يا من يسألني من أنا، أنا لستُ مكنون الأسرار حتى أخفي نفسي عنكم، ولستُ كاهن لأخبركم من أكون، فقد ذُقتُ من الهجران والفقد لذاتي، وحياتي، وعانيتُ من مرارةِ الانطواء والعزلة، فمذ أن تفتحتْ بصيرتي للحياةِ؛ خالجني ثمة شعور أني شيء فيها، وتمنيتُ لو كنتُ من عُظمائها، ولكن جُل ما قد أن لي، أني لستُ ذا فائدة ترجى منه، لأني فقط لا شيء فيها.

الفهرس

المقدمة ٧

لم أكن..... ٩

غريب قريب ١٠

حب أم غباء؟ ١٢

منارة ١٤

تمرد الذكرى ١٦

أصداء الروح ١٨

حفنة ذكريات ٢٢

من ذاكرة الفراق ١ ..... ٢٥

من ذاكرة الفراق ٢ ..... ٢٦

لن يظفر! ٢٨

إن بعض الظن إثم ٣٠

كش ملك ٣٢
لاجئ فوق الثرى ٣٥
أين أنا؟ ٣٧
سارق الأفئدة ٣٩
بخيل الهوى ٤١
أرق يداعب معاناتي ٤٣
الحبيب الأفضل ٤٤
مولاي ... هل ستكون؟ ٤٥
ليتها تفهم ٤٦
على هامش الحنين ٤٩
لعنة الذاكرة ٥٢
الخيبة ٥٦
صخب لحنين ٥٧
لعنة الهوى ٦٠
فصول حبي الأعمى ٦١
عبثية المشاعر ٦٣
لعبة الذكريات..... ٦٤

تغريد حر ٦٧
فانوس الحب العذري ٦٩
صندوق الذكريات..... ٧٠
وابل من الخيبة ٧٢
المقبرة ٧٤
من أي زمان ٧٥
سئمت جفاءك ٧٧
يا من يسألني من أنا؟! ٧٩
الفهرس ٨١